تطور علم الاجتماع الغربـــي من النشأة الى الأزمة.

أ. أحمد عماد الدين خواني
أستاذ متعاون – قسم الحقوق
جامعة باتنة

ملخص:

تكشف النظرة النقدية الواعية، لمعطيات الممارسة السوسيولوجية قديما وحديثا، في مستوياتها المختلفة، أزمة عميقة تشكل نسيجها الداخلي، فعلم الاجتماع الغربي، قبل وبعد النشأة عاش حالة الأزمة بأشكال وتمظهرات مختلفة، إن الأزمة من اهم التمظهرات الابستيمية لضهور الوعي السوسيولوجي، حيث تلعب في نفس الوقت دور العائق والقطيعة المعرفية، وعليه لا يمكن الحديث عن تفكير، ممارسة أو خطاب سوسيولوجي دون الحديث عن الأزمة.

Résumé :

La vision critique consciente des données de l'activité sociologique précédente et actuelle révèle dans ses différents niveaux une crise profonde avant et après sa restauration – a vécu un état de crise des formes et manifestations diverses si même que la crise est l'une des importantes facette épistémique dans l'apparition du résonnement sociologique ; jouant en même temps le rôle d'interférence et de rupture congestive , et donc on ne peut pas parler de résonnement activité ou discours sociologique sans citer la crise

مدخل:

نحاول من خلال هذا المقال مقاربة نشأة التفكير السوسيولوجي الغربي " الآخر"، بتركيباته التاريخو-معرفية، معتمدين المنهج الإبستيمولوجي، وذلك للكشف عن العلاقة الخفية ذات التأثيرات المتبادلة داخل الفعل السوسيولوجي وعلاقته ببقية الدوائر المعرفية الأخرى، والأزمة المعرفية التي تعيشها السوسيولوجية الغربية، بعيدا عن اوهام المركزية والتفوق العلمي، إن أزمة السوسيولوجية الغربية في النهاية، ما هي الا أزمة الذات السوسيولوجية المفكرة، أزمة داخلية ذاتية تذهب بنا إلى الأعماق التاريخية، الثقافية، النفسية، التراثية، التي تكون فسيفاء هذه الذات، فتحليل أزمة الممارسة السوسيولوجية لا يكون له معنى إلا بمقاربة هذه الذات، ومحاولة محاورتها ومناقشتها ومجادلتها معرفيا وتاريخيا.

1. الخلفية السوسيو-تاريخية لنشأة السوسيولوجيا الغربية:

إن الظاهرة المعرفية(السوسيولوجية) لم تكن وليدة صدفة تاريخية أو عبقرية فردية، بل العكس من ذلك فالإنتاج المعرفي الإنساني تراكمي يمكن تتبع أصوله الأولى في محاولة الإنسان التعامل مع الحياة، وإدراك أسرارها، فنشأة التفكير السوسيولوجي كان مصاحبا لنشأة التجمع البشري، لكننا نحاول أن نقارب الظاهرة السوسيولوجية في شكلها العلمي الحديث حتى لا نذهب بعيدا عن أهداف البحث.

عرفت أوروبا الحديثة نقلتها النوعية نحو العلم وإحداث القطيعة الإبستيمية مع التفكير ما قبل العلمي(لاهوتي، فلسفي) في حدود القرن السادس عشر 16، والتي اعتبرت بحق لحظة القطيعة التاريخية على كل المستويات الاجتماعية والحياتية، مع تفكير القرون الوسطى.

1.1. أوروبا ما قبل القطيعة المعرفية:

كان التفكير الكنسي-الديني مسيطرا عل الحياة الشعورية واللاشعورية للفرد الغربي، حيث كان يمثل الإطار الذي يتحرك داخله هذا الفرد ولا يحاول تجاوزه بحثا عن الخلاص وإرضاء الثالوث الإلهي، واستغل النسق الكنسي هذه الوضعية وتحالف مع الإقطاعي صاحب المال والأرض لتسيير الحياة الاجتماعية والمحافظة على الاستقرار الفكري والطبقي للمجتمع الأوروبي، " إن الفكر الوسيط كان سجين

السلطة الكنسية، التي كانت تمتلك التسيير الروحي للمجتمع في كلياته وجزئياته، بحيث كان على الفكر الخضوع لمعتقدات وقرارات السلطة الكنسية، وعدم الخروج والانحراف عنها، أي أنها كانت تعمل على تسيير ومراقبة وعي الجماهير بصفة مطلقة" [1]

إن النسق الكنسي بآلياته وميكنيزمات السيطرة والمراقبة لم تكف لوحدها للمحافظة على جميع سكنات وحركات المجتمع الوسطي، بل كان عليها أن تجد حليفا خارجيا تتحالف معه لتحافظ على " الاستقرار" الاجتماعي، ومثّل الفيلسوف والعالم المفكر أحسن الحلفاء للنظام الكنسي، لقد عبر الرياضي والفلكي بتوليمي (Ptolémée) عن هذا التحالف أحسن تعبير عندما صاغ نظريته الجيومركزية للكون(Conception géocentrique)، التي اعتبرت الأرض مركز الكون، وبقية الأجرام السماوية تتحرك حولها، فمثلت النظم الأولى لتمركز الذات الغربية حول نفسها، باعتبارها مركز الحقيقة.

من جهة أخرى تحالفت الكنيسة مع التصور الأرسطي للكون بعد أن تم تمسيحه(christianisé)، "ففي البداية لم يُستقبل أرسطو بصدر رحب، بل كان هناك رفض من طرف السلطة الكنسية، التي كانت متربعة على عرش الوعي الاجتماعي ووديعة الحياة الروحية للأفراد-لدراساته، وهذا لكونها كانت ترى أن الفكر الأرسطي في بعض عناصره[مثلا خلود وبقاء الكون] غير منسجم ومتعارض مع تعاليم الدين المسيحي المنـــزل"[2]، وأهم المسلمات الفيزيائية لأرسطو هي الكسمولوجية: أي مركزية الأرض داخل الكون، التي استمدت منها الكنيسة فكرة المركزية الدينية(Théocentrisme) باعتبار أن كل الظواهر منبعها ديني ورجل الكنيسة هو المخول لفهم هذه الأسرار. أما النقطة الثانية تتمثل في البحث عن جوهر الأشياء، أي ما هو الشيء الذي يجعل الشيء على ما هو عليه ؟ وأن هذا الجوهر لا يدركه إلا بابا الكنيسة !

لقد وضعت الكنيسة إستراتيجية فكرية أساسها السيطرة والتحكم المطلق على الحياة الاجتماعية والذات الفردية، حيث" العقل الإنساني كان مستبعدا، السلطة خارجة عنه، لا يملك حرية التفكير، إلا في داخل النطاق الذي حدده النقل، أعني

الإيمان، وأن الفلسفة تبعا لهذا يجب أن تكون في خدمة اللاهوت، وأن المعرفة ينبغي أن تستهدف هدفا واحدا، هو سبيل النجاة "[3]

2.1. من القطيعة المعرفية إلى الأزمة المجتمعية:

1.2.1. النهضة الفكرية والفلسفية:

بدأت القطيعة الفكرية مع النسق المعرفي الكنسي في حدود القرن 15 بظهور النزعة الإنسانية (L'humanisme) التي حاولت تحرير الذات الإنسانية من الاستعباد والسيطرة الدينية المسيحية التي استعبدته لقرون، فعارض الفكر الجديد "سلطة الكنيسة القوية في ظل الإقطاع، بمبدأ حرية تفتح الشخصية الإنسانية، وأخلاق القرون الوسطى التقشفية والزهدية، بالتأكيد بحق التنعم بملذات الدنيا وإشباع مختلف الحاجات والأهواء[باحثة] عن الإنسان الحر الذي يبني مصيره بيديه "[4]، هنا حدثت القطيعة الفكرية مع التفكير الديني المسيحي، وظهر التفكير الحر المسؤول المتفائل.

لقد كان الإبداع الفني أهم مظاهر هذه القطيعة للذات المفكرة، ظهر ذلك مع أعمال الفنان ليونار دوفانسي (Léonard Devancier)، وظهور فكرة التجريب التي تسللت إلى كل العلوم والجامعات، وهناك بدأت الثورة العلمية الحقيقية والتحرر التام من القيود الوسطية، فمثلت أعمال "كوبرينك "(1473-1543) الفلكي البولوني أهم نقلة نوعية في عالم الفيزياء حيث تفتت على إثره التصورات المركزية للكون الأرسطية فانتقلت الأرض من مركز إلى تابع، إن " هذا النسق الفلكي الكوبرنيكي، لا يأتي فقط بتعديل جديد، بل بتصور جديد للعالم وشعور جديد للوجود، نقل الشمس إلى مركز الكون يعبر عن نهضة ميتا فيزيقية للضوء، كما يرفع الأرض إلى مصاف الكواكب"[5]، فالثورة الهليو مركزية حطمت الكثير من المسلمات والمعتقدات السابقة، بل غيرت وجهة العالم تغييرا جذريا، فانهارت على إثرها كل التصورات المسبقة وانهارت معها كل الأنساق التقليدية الكنسية والإقطاعية والفلسفية، " أنه الفعل الثوري الذي بفضله أعلن علم الطبيعة تحرره، كان العمل الخالد الذي قدمه كوبرنيك -رغم كونه [كوبرنيك] على فراش الموت وقدمه بصفة محتشمة- الذي تحدى به السلطة الكنسية، فيما يخص تفسير الظواهر الطبيعية، من هذا الفعل [الكوبرنيكي] يبدأ تاريخ تحرر علم الطبيعة من اللاهوت"[6]

إن القطيعة العلمية التي أحدثها " كوبرنيك " مع التفكير السابق-رغم كونه محتشما تجنبا للصراع وكان السبيل الذي سار على إثره كل من " كبلر" وثم "غاليلي" لتحويل مسار التفكير إلى أهداف ومآلات لم يسبق للتفكير الإنساني بلوغها.

يعد" كبلر" (1571-1630)الفلكي الألماني مؤسس علم الفلك الحديث، باكتشافه قوانين حركة الكواكب، حيث ظهرت فكرة القانون الكوني ذو الأساس الرياضي مع أعمال " كبلر ". إضافة إلى أعمال " غاليلي" (1564-1642) مكتشف ومؤسس الفيزياء الكلاسيكية، والذي حطم كل المسلمات الأرسطية حول الكون، واستبدالها بتصوره الهندسي حول المجال" أي تعويض المجال الكوني المنسجم والمجرد للهندسة الإقليدية بالمجال المتمايز كيفيا والوقائعي الذي هو مجال الفيزياء الغاليلي" [7]

لقد فتحت تلك القطيعات العلمية المجال واسعا لظهور فلاسفة النهضة الذين حاولوا التأصيل لتلك القطيعة، بمراجعة التراث الفلسفي الوسيطي انطلاقا من الفلسفة الأرسطية، فوضع ديكارت (1596-1650)مشروعه الفلسفي الهادف إلى " إحداث قطيعة معرفية مع التراث الأرسطي، وذلك في مستويين اثنين: -المستوى المنهجي، نقد المنطق الأرسطي وإظهار مجال العقم فيه[.]، المستوي الفلسفي، نقد الفلسفة الأرسطية من خلال نقد الفلسفة اللاهوتية الوسيطية وخاصة فلسفة القديس توما الإكويني، وذلك بتحرير قدرات العقل الإبداعية وجعله المبدأ الأول والأساس في هذا الوجود" [8]،لقد أحدث ديكارت نقلة نوعية على مستوى منهجية التفكير الفلسفي المتحالف مع الكنيسة، فنقل هذا التفكير من مستوى المنطق الأرسطي إلى مستوى الاستدلال العقلي، ورغم أن الموضوع بقي نفسه حول اللاهوت والغيبيات تجنبا للصراع مع رجال الكنيسة، والذي أدى به إلى تغيير الكثير من أراءه التي توصل إليها بمنهجيته الجديدة إرضاء لرجال الدين، حيث يقول في كتابه " مقالة الطريقة "" وألا أكتب عنها أبدا ما يمكن أن يعود بالضرر على أي إنسان ، وهذا كان كافيا لحملي على تغيير ما عزمت من نشر هذه الآراء"[9] .

في بداية القرن الثامن عشر(18)، وفي فرنسا بالتحديد بدأت المواجهة الحقيقية والعلنية بين فلاسفة العقل والنسق الكنسي-اللاهوتي، إنه عصر الأنوار الذي سيغير المشهد الفكري والفلسفي لأوروبا والعالم ككل، " إن فلسفة القرن الثامن

عشر تستند في كل أنحائها على نموذج منهج الفيزياء النيوتينية[...] تعتبر من البداية، أن مسائل الطبيعة ومسائل التاريخ يشكلان وحدة، لا يمكن أن نفصل بينهما تعسفيا" [10]، معنى ذلك أن للطبيعة قوانين يمكن اكتشافها باستعمال الاستدلال العقلي الذي أسسه كل من ديكارت، لوك نيوتن،...، وإتباع منطق نقدي لكل مظاهر الحياة الاجتماعية بما فيها الحياة الدينية(المسيحية)، إنها ثورة تحرير الإنسان من كل القيود التي كانت تكبله، لقد مثل كانط (Kant) (1724-1804) الفيلسوف الألماني أحد أهم أقطاب هذه الثورة الفكرية الاجتماعية بفلسفته المبنية على العقل والنقد.

مع بزوغ القرن التاسع عشر(19) بدأ التفكير الإنساني والسوسيولوجي يسلك طريقه نحو التحرر والإنعتاق من النموذج الفلسفي اللاهوتي، مقتفيا آثار العلوم الطبيعية وبشكل خاص الفيزياء، محاولة منه إحداث القطيعة الإبستمولوجية، وتأسيس خطاب علمي وعقلاني، حيث يقول سان سيمون في ذلك:" في الوقت الحاضر، الاستعمال الأحسن الذي يمكننا تناوله لقوى قدراتنا العقلية هو أن نعطي للعلوم الإنسانية الصفة الوضعية"[11].

2.2.1.الأزمة المجتمعية وملامح ظهور التفكير السوسيولوجي:

لقد كان هاجس العلوم الطبيعية منذ البداية، مسيطرا على التفكير السوسيولوجي الذي اعتبر الخلاص في ذلك النموذج العقلاني والمنطقي الذي وضعه الطبيعيون، ومن تلك اللحظة عرفت المقاربات السوسيولوجية للظواهر الاجتماعية إسقاطا للنموذج الطبيعي على الظواهر الاجتماعية، المعتمد على التجربة والملاحظة المباشرة، القائم على مبدأ السببية والحتمية، ومن هنا ظهرت فكرة المنهج العلمي الذي يعتمد على مجموعة من الخطوات والمراحل للوصول إلى الحقيقة. وذلك باختلاف الظواهر والموضوعات، واعتبر المنهج التجريبي تتويجا لتلك المرحلة.

لقد كان للنموذج النيوتيني الفيزيائي تأثيرا كبيرا على مسار العلوم، وبشكل خاص علم الاجتماع، حيث أن "أكبر المفكرين كان يحلم، كل في ميدانه أن يكون نيوتن تخصصه المعرفي، هذا على سبيل المثال، طموح هيوم وهلر وفولتير وبوغون وبرتيز" [12]، وهذا ما جعل مؤسس علم الاجتماع الحديث أوغست كونت (A.Comte) يطلق في البداية على علم الاجتماع: علم الفيزياء الاجتماعية، ليجسد حالة الانبهار والتأثر الذين ميزا الحياة الفكرية في ذلك الحين.

إن هذه التحولات والقطيعات المعرفية مع الأنساق التقليدية والتي قادها كبار الفلاسفة والمفكرين والعلماء، لم تحدث بمعزل عن الحراك الاجتماعي والتغيرات البنيوية التي كانت تمس أوروبا القرن السادس عشر(16)، فقد عرفت أوروبا منذ ذلك القرن عدة ثورات تحتية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، غيرت بشكل جذري معالم النسق الاجتماعي الأوروبي، فمن حركة الإصلاح الديني في ألمانيا مع " كالفن" و" لوثر"، إلى الثورة الصناعية في إنكلترا، وصولا إلى الثورة الفرنسية عام 1789، تغير شكل المجتمع الأوروبي المعاصر، وبدأت الدعوة إلى " علم " أو "منطق" يفسر كل هذه التحولات الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية تفرض نفسها يوما بعد يوم، حيث يقول " ميشال فوكو" (M.Foucault) في ذلك : "إن التحديات التي ظهرت بعد الثورة [الفرنسية] في القرن التاسع عشر 19، والتي أدت إلى بروز الطبقة البرجوازية، كانت تنتقل على التوازنات الاجتماعية الشيء الذي حتم إنتاج وتأسيس فكر ذو طابع سوسيولوجي"[13]. لقد لعبت الطبقة البرجوازية دور حاسم في تحريك الشارع الأوروبي وإحداث الانقلاب السياسي، الاقتصادي، الديني على الإقطاعي المتحالف مع رجل الكنيسة، فأعقاب الثورة الصناعية ظهرت فكرة الرأسمالية التي غيرت جذريا العلاقات السوسيو-اقتصادية وبعدها الثقافية داخل المجتمع الأوروبي الحديث، فيوضح"ماكس فيبر"(M.Feber) ذلك في كتابه " الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية بقوله:" في الوقت المعاصر، عرف الغرب في حد ذاته شكلا آخر للرأسمالية وهو التنظيم العقلاني الرأسمالي للعمل [...] إلا أن التنظيم العقلاني للمؤسسة المقترنة بالسوق المنتظم-وليس للصدفة غير العقلانية أو لسياسة المضاربة، لم تكن الخاصية الوحيدة للرأسمالية حيث لم يكن للرأسمالية أن تظهر بدون عاملين أساسيين:

1. الفصل بين البيت والمؤسسة والذي يطغى على كل الحياة الاقتصادي.
2. الحساب العقلاني الذي يرتبط بها ارتباطا وثيقا " [14] .

لقد كان لتحرير التجارة وظهور المدينة ومعها السوق، وبدأت فكرة المصانع اليدوية(Manufacture) في الظهور، وبروز التجارة العالمية والنـــزعة الاستعمارية، كل هذه العوامل أدت إلى تغيرات مورفولوجية في شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الأوروبي، فاستُبدل مفهوم الأسرة والعائلة بمفهوم الدولة

والنظام، وتغير مفهوم الثقافة والتقاليد إلى مفهوم القانون والعدالة، وتغير الملكية الإقطاعية إلى ملكية فردية رأسمالية، واستُبدل مفهوم العلاقات العائلية بمفهوم علاقات العمل وتقسيم العمل، إن كل هذه التحولات أفرزت ظهور خطاب جديد، "هذا الخطاب الجديد يمثله علم الاجتماع من حيث هو علم جديد يعكس مجتمعا جديدا، لقد كان ظهور علم الاجتماع بمثابة ضرورة معرفية تاريخية، وهو انعكاس الواقع الاجتماعي على مستوى التجريد بإنتاج الخطاب الجديد إطار العلاقة بين الفكر و الواقع التاريخي الفعلي الذي كان يتطور بصفة مطردة "[15]. إذا كانت الثورة الصناعية في إنجلترا غيرت العلاقات الاجتماعية من خلال العلاقات الاقتصادية، فإن الثورة الفرنسية أحدثت القطيعة النهائية السياسية والثقافية مع النظام الإقطاعي، لقد انهار النظام الكنسي تماما مع الثورة الفرنسية بظهور فلسفة الأنوار مع"روسو"(Resou)، وعم مصادرة أملاك وأموال الكنيسة الرمزية والمادية، أين أصبحت تابعة لنظام الدولة حيث يعتبر"البابا" موظفا لدى الدولة يُنتخب لمنصبه كأي منصب إداري آخر، واستُبدلت الإيديولوجية الدينية بإيديولوجيات ثلاث، انعكست فيما بعد على تشكل المشهد السوسيولوجي الأكاديمي وهي:

1. الإيديولوجيا الراديكالية.
2. الإيديولوجيا الليبيرالية.
3. الإيديولوجيا المحافظة.

« لقد انهار التحالف الهش أو على الأقل الذي كان موجودا في العصور الوسطى بين السلطة والثروة والمكان، أي بين المكونات الثلاثة لهذا النظام المفكك من طرف الثورة، وبات مهزوزا من جراء التصنيع وصعود القوى الديموقراطية، لقد اختفى هذا التحالف بمكوناته الثلاثة فأصبحت هذه الأخيرة تبحث طوال القرن التاسع عشر عن تشكيل تحالف جديد مؤهل أكثر للبقاء" [16].

لقد أفرزت الأزمة المزدوجة: "الأزمة السياسية-الاجتماعية الناتجة عن الثورة الفرنسية 1789 والأزمة الاقتصادية-الاجتماعية الناتجة عن التصنيع الهائل وتطور الرأسمالية"[17]، ظهور علم الاجتماع كمطلب سوسيو-اقتصادي، أوكلت له مهمة مراقبة وفهم التغيرات السريعة والعميقة التي هزت وتهز المجتمع الأوروبي، لقد كان تفاعل الذات المفكرة (السوسيولوجية) "للآخر" منذ الوهلة الأولى مع معطى

اجتماعي-ثقافي متميز عن بقية الوقائع والمجتمعات الأخرى، إن هذه الذات كانت تعالج وتترصد وتنظر للإنسان الغربي، الفرداني والمنعزل والمكتفي ذاتيا، المتوهم بالمركزية، والمتحرر من القيود الدينية المسيحية، الذاهب إلى أبعد الحدود في تطبيق الإختزال والصراع، المسخ والإفراط مع ذاته ومع الآخر المختلف عنه، إنها الوضعية المختلفة تماما عن حال "النحن" و"الأنا" والذي يحاول التفكير الإبستمولوجي الواعي إدراكها وتتبع خلفياتها وتأثيراتها.

2 تأسيس علم الاجتماع الغربي:

بعد الثورات الثلاثية التي مست أوروبا القرن الثامن عشر(18) والتغيرات الجذرية التي أحدثتها داخل المرفولوجية الاجتماعية الأوروبية، وبعد القطيعات الفكرية والفلسفية لفكر الأنوار مع تفكير القرون الوسطى، جاء التفكير في ظهور علم يراقب ويفسر ويفهم كل هذه التغيرات نتيجة طبيعية ومنطقية لحالة الاضطراب التي عاشتها أوروبا القرن الثامن عشر(18).

جاءت دعوة " سان سيمون" (S.Simon) لظهور علم الإنسان يقتفي آثار العلوم الطبيعية مفتاحا لوضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع، وقد كان هدفه هو "إعادة تنظيم المجتمعات الأوروبية وإعطائها قاعدة تعتمد على العلم والتصنيع"[18]، لقد كان التأثر واضحا ومنذ البداية بنموذج العلوم الطبيعية (خاصة الفيزياء النيوتينية) لدى مؤسسي علم الاجتماع، أملا في إحداث القطيعة المعرفية مع التفكير الفلسفي-اللاهوتي وبالتالي افتكاك الاعتراف والمصداقية العلمية والاجتماعية.

بدأت ملامح العلم السوسيولوجي تتضح أكثر مع المؤسس"أوغست كونت"(A.Comte) (1798-1857)، تلميذ"سان سيمون"، الذي لم يُخفي منذ البداية تأثره العميق بفيزياء "نيوتن" حتى أنه أطلق تسمية "الفيزياء الاجتماعية" على العالم الجديد، والذي ما هو إلا تتويج لبقية العلوم الأخرى.

إن القراءة الإبستيمية لظهور علم الاجتماع ترشدنا إلى أن المعرفة تنشأ وتتطور من داخل مجال ذو ثلاثة أبعاد: نفسية، اجتماعية، تاريخية، وهي الأبعاد ذاتها التي كانت تحرك أب السوسيولوجيا "أوغست كونت" منذ البداية، والتي ظهرت بكل وضوح في أعماله وكتاباته فرفض حالة الأزمة والثورة في فرنسا" وهي في

نظر كونت مصدر للفوضى الأخلاقية أولا ثم للفوضى السياسية بعد ذلك [...] فرفع الفوضى السياسية وإعادة النظام إلى المجتمع، يقتضي إزالة الفوضى الأخلاقية، وهو الأمر الذي يتطلب النظر في الفوضى العقلية بإقامته المعرفة العلمية بالحياة العملية للمجتمع"[19]، فدعوة "كونت" إلى قيام السوسيولوجيا كان الهدف منه هو السيطرة مرة أخرى على النظام السياسي، الاجتماعي، الأخلاقي، للمجتمع الأوروبي، والفرنسي خصوصا وكان "كونت" أرجعنا إلى القرون الوسطى حيث كان الدين المسيحي هو الذي يقوم بهذه المهمة الخطيرة والحساسة، إن السوسيولوجيا الكونتية هي الدين الوضعي(Positivisme) الجديد لأوروبا الصناعة والتكنولوجيا، ويتضح ذلك عندما تحولت انشغالات كونت إلى " الإنشغالات العملية والسياسية [...] على حساب الانشغال العلمي، حيث يتوقف كل نشاط فكري في هذا الميدان بعد موت الأستاذ. وهكذا ما إن نشأ هذا العلم [علم الاجتماع] حتى اختفى عن الأفق ودام السكون مدة لا تقل عن ثلاثون عاما"[20] .

أثرت الظروف السياسية والاجتماعية في توجيه وحركة وسرعة علم الاجتماع الغربي، حيث يعترف دوركايم بذلك حيث يقول:" لا بد من القول أن الأسباب العميقة التي ولدت علم الاجتماع، والتي كانت وحدها قادرة على صيانة حياته، ستنتهي بضياع طاقاتها، لقد حدث خلال التحصين [Les taurations]دفعة حقيقية من الحماس العقلاني، حيث أن إعادة التنظيم الأخلاقي للبلاد، كان منتظرا من العقل وحده، أي من العلم، إذ نتج عن هذا الغليان الفكري، في نفس الوقت، السان سيمونية، الفوربرية [Fourrier]، الكونتية وعلم الاجتماع" [21]

بعد أزيد من ثلاثين سنة من الغيبوبة المعرفية للسوسيولوجيا الناشئة حدثت القطيعة الثانية داخل التفكير السوسيولوجي، ببروز أهم رواده ومنظريه مثل: ماركس(K.Marx)، دوركايم(Derkheim)، فيبر (M.Weber)، باريتو(Bariton). والذين أحيوا النقاش مجددا داخل الحقل السوسيولوجي بشكل أكثر وعيا وعمقا وإيديولوجية، وانتقل النقاش إلى الإطار الأكاديمي المؤسساتي وطرحت "المسألة الاجتماعية" لأوروبا القرن التاسع عشر(19)،" إن التتويج المؤسساتي لعلم الاجتماع في أوروبا هو حديث العهد، فكان متزامنا مع تأكيد هيمنة نمط الإنتاج الرأسمالي وانتقال هذا الأخير إلى آخر وأقصى مستواه، وهو الإمبريالية

[...] فتأسيس علم الاجتماع يتوافق مع مرحلة ما بعد الثورة البورجوازية، حيث كان على البورجوازية [المسيطرة]، أن تدخل المعركة على جبهتين: مع اليمين المتطرف المتمثل في خطة عودة النظام الملكي، ومع الطبقة العمالية التي كانت تناضل من أجل ثماني ساعات عمل يوميا "[22]، فعملت البورجوازية على تصفية معالم وأنصار النظام الإقطاعي-الكنسي القديم من كل مظاهر الحياة الجديدة من جهة، ومواجهة الحركات العمالية الصاعدة بشكل مذهل والمتحالفة مع النظرية الماركسية من جهة أخرى، ولكي تواجه البورجوازية هذه المظاهر، كان لا بد لها من خطاب إيديولوجي قوي ومقنع لإسكات الرأي العام الأوروبي، ومواجهة المد الاشتراكي المعادي لها منذ البداية، وهكذا ظهرت الوظيفية والرمزية والبنوية، والوضعية المحدثة..كأجهزة إيديولوجية بيد البورجوازية المسيطرة يوما بعد يوم، " باختصار، فإن التقدم السريع للإنتاج الصناعي؛ تطور المكننة وزيادة الإنتاج على مستوى أوسع، كان لها أثر في جلب الاهتمام حول قضية "المسألة الاجتماعية" وحول ضرورة ترقية علم اجتماعي يكون قادرا على القيام بتحليل الواقع عن طريق استعمال منهج علمي على غرار علوم الطبيعة"[23].

إن "دوركايم" عندما بدأ بوضع الأسس الإبستمولوجية (الموضوع، المفاهيم، المنهج، النظرية) لتأسيس علم الاجتماع لم يكن منعزلا عن تلك التحولات العميقة التي كانت تمس المجتمع الأوروبي، فكان الهاجس السياسي (صعود الجمهورية الثالثة)، والاقتصادي (صعود البورجوازية)، والاجتماعي (الأزمة الاجتماعية) حاضرا بقوة في ذهنه وخياراته الإبستيمية، حيث يطرح مسألة الوعي (Conscience) وضرورة توجيه بما يتلاءم وأهداف المجتمع، ولذلك يعلن بأنه " حان الأوان لتتخلى الجامعة عن هذه العزلة، إذ من مصلحة البلاد أن توسع في مجال تأثيرها، ومن جهة أخرى، لا تستطيع الجامعات التعبير عن الشعور بأهميتها إلا إذا توقفت عن الانغلاق عن ذاتها، والاحتكاك أكثر بالحياة العمومية"[24]، فالمهمة التي أوكلها "دور كايم" الأب الثاني للسوسيولوجيا هي معالجة الواقع المتأزم وفك إشكالياته المختلفة، فكان على علم الاجتماع منذ البداية الانخراط في مسارات تبريرية إيديولوجية بحجة البحث عن الاستقرار والسعادة الاجتماعية، إن هذه الوضعية هي التي زجت بالخطاب السوسيولوجي لاحقا في متاهات الأزمة ومراجعة الذات، هذا ما جعل جيوفاني بوسينو يصف تلك المرحلة بقوله: " في أواخر سنوات السبعينات بدأت الوظيفية

ومعتقدات وتأكيدات أخرى تتمزق تقريبا. وبدت كل التحليلات والتنبؤات المتعلقة بالواقع التاريخي-الاجتماعي، والتي غذّت تفكيرنا أو وجهت بحوثنا حينذاك حشوية وخادعة، [...] أي باختصار عجزنا عن القيام بشيء آخر غير تكرار المُشابه والمبتذل إلى مالا نهاية- أدى لإدخال علم الاجتماع في مرحلة ركود هائل"[25].

3. من التأسيس الأكاديمي إلى أزمة السوسيولوجيا الغربية:

في العقود الأولى من القرن العشرين(20)، بدأ المشهد الاجتماعي، السياسي والاقتصادي الأوروبي في التحول مرة أخرى، فبعد عقود الازدهار والتحرر والرفاهية وفرحة الانعتاق من الماضي الوسيطي، يجد الآن الفرد الأوروبي نفسه أمام تحديات أخرى، لم يشعر بها من قبل، لقد بدأت تلك الذات المتحررة تتساءل نفسها عن نفسها، عن أسباب وجودها، عن ماهيتها، عن علاقتها مع الآخر المشابه والمختلف عنها، وظيفتها كمركز أو كفرع...إنها أسئلة الداخل الصعبة والحساسة التي شكلت نسق الأزمة الوجودية والمعرفية لدى الذات الغربية.

في خضم تلك التحولات العميقة، وجد علم الاجتماع نفسه محاصرا؛ خارجيا بمظاهر الأزمة الاجتماعية والفكرية، وداخليا في منظومته المعرفية ونسقه التحليلي والمنهجي،" ليسقط علم الاجتماع هو ذاته في أزمة حسب الخطاب السائد حول هذا الموضوع، رغم اعتبار البعض -خاصة في الحالة الفرنسية- أن الذي كان وراء الأحداث التي تعرفها المجتمعات الغربية والتي أظهرت بوضوح حالة الشكوك واهتزاز في القناعات، رغم ما أثارته من آمال، هُم السوسيولوجيون"[26]، لقد اتهمت السوسيولوجيا بإثارت الفتنة ونشر الصراعات داخل المجتمع الأوروبي وأنساقه، ببحثها الدائم عن أسباب الخلل أو تبرير الوضعية القائمة، وبذلك وُضع السوسيولوجي في قفص الاتهام مرة أخرى بعد أن نزع عباءة القسيس الوسطي.

لقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ السوسيولوجيا الغربية بالاختلاف في كل شيء والصراع على كل شيء داخل النسق المعرفي السوسيولوجي، إلا أمر واحد كان محل اتفاق وتلاقي بين السوسيولوجيين وغيرهم: هو أن علم الاجتماع يعيش مرحلة الأزمة، يصف "جيوفاني بوسينو" ذلك بقوله: " لقد تفتت كل شيء، الجماعة التي تحترف مهنة علم الاجتماع بصفتها جماعة علمية، دور عالم الاجتماع، مقاييس العلمية، كل آمالنا وكثير من رجائنا [...] لقد تحطم كل شيء من منظومة المفاهيم

والنظريات التي استخدمناها من أجل إضفاء مفهوم على العالم الذي كنا نعيش فيه، أو نعتقد أننا نعيش فيه، إلى التزاماتنا وهويتنا المهنية، وأصبح من الآن فصاعدا، باطلا وغير مفيد"[27]، إن حالة الإحباط النفسي التي عاشتها السوسيولوجيا الغربية من خلال القرن العشرين(20)، جعلت الكثيرين من المفكرين والسوسيولوجيين يراجعون أنفسهم وممارساتهم السابقة بحثا عن الحل." إن علم الاجتماع هو علم يقوم بقفزات، أو على الأقل يتحرك مع كل أزمة اجتماعية مهما كان نطاقها"[28] .

إن كل الجهود التي حاولت مقاربة الأزمة السوسيولوجية الغربية، باختلاف مداخلها وتعدد فهومها للوضعية أو الظاهرة السوسيولوجية تتفق في الأخير على أن بعدين أساسيين يشكلان نسق هذه الأزمة؛ الأول: هو البعد الإيديولوجي الذي ارتبط علم الاجتماع منذ النشأة به، بل الدافع الإيديولوجي من أهم الدوافع التاريخية لظهور علم الاجتماع، والثاني؛ كخطاب اجتماعي أكاديمي بديل للخطاب الديني الثيوقراطي التأسيسي لعلم الاجتماع؛ أي العناصر المكونة داخليا للنسق السوسيولوجي باعتباره علم له عناصر تكوينية وشروط ابستيمية يتقيد بها إذا أراد أن ينعت بالعلمية، وعليه سنحاول عرض للبعد الإبستيمولوجي لأزمة السوسيولوجية الغربية، ونأجل البعد الاخر الى مقال لاحق.

4 البعد الابستيمولوجي لمظاهر أزمة السوسيولوجيا الغربية "الآخر":

إن الديناميكية الاجتماعية التي عرفتها أوروبا وأمريكا الشمالية خلال الستينات، أثرت سلبا على علم الاجتماع الذي لم يفق بعد من حالة اللاوعي التي كان يعيشها، فالأزمة" الجامعية وأوسع من ذلك الأزمة الاجتماعية، التي تمس منذ سنوات بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، هي مرتبطة بحالة إعادة النظر في علم الاجتماع"[29] وأكثر ما يدل على هذه الوضعية الحرجة للسوسيولوجيا الغربية هو" التكاثر غير المحدود للمؤلفات التي تقترح إعطاء تحديدات جديدة لعلم الاجتماع تدل على ذلك، بالفعل تسيير الأمور وكأن علم الاجتماع انطلاقا من عدم رغبته فيما هو موجود، يحس بالحاجة إلى إعادة التفكير بطريقته الخاصة في مكانة وملامح ممارسته النظرية الخاصة به"[30]، يمكن مقاربته(ابستيميا) من خلال ثلاث مؤشرات، تعتبر المكونات الأساسية لأي علم وهي: مؤشر الموضوع، مؤشر المنهج، مؤشر النظرية، وسنحاول تحليل هزة المؤشرات/الأسس الابستيمية للسوسيولوجية الغربية.

1.4 .أزمة الموضوع السوسيولوجي:

إن أهم ميزة معرفية لعلم الاجتماع منذ النشأة، أن " كل علماء الاجتماع أو تقريبا بحثوا عن تحديد موضوع علم الاجتماع، هذا يعني بصفة أخرى، أنه لا أحد استطاع فعلا أن يصل إلى ذلك"[31]، فموضوع السوسيولوجيا منذ البداية كان محل خلاف شديد بين المتخصصين فيه، وهذه الحالة لم يشهدها بهذه الصورة أي فرع علمي آخر، إن من أهم أسباب هذه الوضعية الخلافية، وحتى الصراعية أحيانا وهو عدم تحديد تاريخ السوسيولوجيا في حد ذاتها، أي: متى بدأ التفكير السوسيولوجي المعاصر ؟ هل هو مع البورجوازية ؟ هل هو يقبل ذلك ؟ هل بدأ مع الماركسية ؟ ...فتحديد تاريخ ظهور التفكير السوسيولوجي الحديث يحدد لنا الأطر الثقافية والاجتماعية التي كان يتفاعل معها وبالتالي إمكانية تضييق دائرة الاختلاف.

إن الحديث عن موضوع لعلم الاجتماع-إبستيميا-يشير إلى بنية معرفية متكاملة وغير متناقضة، تتكون هذه البنية من مجموعة عناصر أهمها "المفاهيم" باعتبارها تصورات ذهنية مجردة عن وقائع مادية، وبالتالي فالاختلاف في تحديد " المفاهيم" هو في الأساس اختلاف في التصور الذهني للأفراد، أي أن مجموع الرموز التي تفكر من خلالها الذات المفكرة، تختلف باختلاف البيئات الثقافية والاجتماعية، وبتعدد الخيارات الخارجية(خاصة الإيديولوجية، والذاتية)، وعليه فانعدام الإطار الترميزي التصوري المشترك يؤدي إلى تعدد الفهوم والتصورات، وهذا ما يؤدي إلى الاختلاف في تكوين البنية النهائية لموضوع السوسيولوجيا.

إن هذه الحالة خاصة بعلم الاجتماع، أين " يتفق كل علماء الاجتماع حول نقطة واحدة: صعوبة تحديد موضوع علم الاجتماع "[32]، عكس بقية التخصصات الأخرى، وسبب ذلك يعود في الأسس إلى البعد الإيديولوجي-كما بينا سابقا، الذي أطر وحدد مجالات الترميز وأهداف السوسيولوجيا من قبل أن ترى النور، بل كان هو الدافع الخفي والأساسي لظهور تفكير سوسيولوجي، وعليه تختلف التعريفات ومن خلالها الموضوعات بحسب الإطار الإيديولوجي الذي تتكلم من خلاله الذات السوسيولوجية.

إن أزمة الموضوع في علم الاجتماع إبستيميا، تعالج من خلال الأطر الإيديولوجية المختلفة التي سادت أوروبا ما بعد القطيعة. وعليه يمكن للذات العارفة

أن تدرك الاختلاف وتحدد لنفسها مسارات تفسيرية أكثر وعي وخصوصية(مثل: ذات الأنا، والنحن)، التي تحدد العلاقة بين الذات والموضوع.

2.4 . أزمة المنهج السوسيولوجي:

إن "المنهج" كان الهاجس المقلق لعلم الاجتماع منذ النشأة، لقد كان البحث عن "المنهج" هو البحث عن العلم في حد ذاته داخل النسق الفلسفي المتهاوي بسرعة تحت ضربات التفكير العلمي الجديد، والقطيعة الفكرية والفلسفية التي شهدتها أوروبا القرن السادس عشر(16)، حيث كان الانبهار بانجازات الفيزياء التي استطاعت عن طريق منهجها التجريبي أن تحدث القطيعة النهائية مع النسق القديم، وعليه وجدت الذات السوسيولوجية نفسها تتقمص رداء التجريب تشبها بالعلم الفيزيائي وهروبا من المراقب الإبستمولوجي الذي يقف على قارعة باب العلم، واستطاعت تلك الذات بتواطؤ خارجي(إيديولوجي) أن تلج ساحة العلم برداء التجريب، لكنها(الذات السوسيولوجية) سرعان ما انكشفت حقيقتها عندما وضعت في موقف مسألة أمام ذاتها وأمام الآخرين، فكان أصل الأزمة هو " الرغبة الجامحة في استخدام مناهج وطرق وأساليب العلوم الطبيعية وتطبيقها بحذافيرها في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية على أمل أن يساعد ذلك على الوصول إلى نفس الدرجة من الدقة التي بلغتها العلوم الطبيعية والبيولوجية [!] "[33] ، إن خدعة المنهج التجريبي سرعان ما انكشفت، فالمنهج باعتباره الطريقة الصحيحة والسليمة التي توصلنا إلى نتائج أفضل في أسرع وقت وأقل جهد، لم يستطع أن يتلاءم مع موضوع علم الاجتماع، هذا الموضوع الذي لم يتحدد بعد! فتعددت المناهج بتعدد الموضوعات، وتفاقم الصراع المعرفي داخل النسق السوسيولوجي، وانقسم المشهد السوسيولوجي إلى مؤيدي "الكم" من جهة، ومن مؤيدو أنصار"الكيف" من جهة أخرى، حتى أصبح موضوع علم الاجتماع القرن العشرين(20) هو الصراع الداخلي حول أفضل منهج وأحسن أداة وأسلوب، وغاب الهدف الرئيسي لفهم المجتمع داخل غبار المعركة، " يوجد علم الاجتماع في حالة أزمة لأن الجدل الذي يصب في هذه الظروف، يميل إلى تبيان البعض من العلاقات "المخفية" الموجودة بين التقليد الخاص بالبحث السوسيولوجي والأطروحات النمطية أو النماذج التحليلية من جهة، وبين مختلف المواضيع المسيطرة في البحث من جهة أخرى، أي مختلف الآفاق المتعلقة

بطبيعة الأنظمة الاجتماعية ومختلف الاختيارات الإيديولوجية ولسياسية واختيار المواضيع والملامح الخاصة بالبحث "[34].

3.4 . أزمة النظرية السوسيولوجية:

إن الحديث عن أزمة "موضوع" ثم التأكيد على أزمة "منهج" يجعل الحديث عن أزمة "نظرية" تحصيل حاصل، لكن الأمر يكون أكثر خطورة من الناحية الإبستمولوجية عندما يغيب النسق النظري داخل الكيان العلمي(السوسيولوجي)، لذا حاول علماء الاجتماع، وبشكل خاص رواده، وضع نظرية تفسير من خلالها ظاهرة أو مجموعة من الظواهر الاجتماعية، وذلك باختلاف مداخلهم ومناهجهم. إن النظرية باعتبارها أرقى مستويات المعرفة، لقدرتها التفسيرية لمجموعة من الوقائع بمرور الزمن، تعد شرطا رئيسيا في قيام العلم، وتتعلق أزمة النظرية في علم الاجتماع بأزمة تحديد مفاهيم هذا العلم، فالنظرية تكون في البداية مجموعة فرضيات تنتظر الاختبار لتصبح نظرية في أعلى مستوياتها، فهذه الفرضيات تتكون من مجموعة من المفاهيم والتي تستمدها الذات السوسيولوجية من الأطر الاجتماعية، الثقافية التي تتفاعل من خلالها، وباختلاف هذه الأطر تختلف التفسيرات، ومثال ذلك النظرية البنيوية الوظيفية كنموذج تفسيري " هذا النموذج يطرح أولا فرضية وجود إجماع اجتماعي، [...] ثانيا، الإدعاء أنه بسبب العيوب الإيديولوجية والتحليلية، فإنه من الصعب استخراج من البديهية الأساسية لهذا النموذج نظريات[...] .ثالثا، تدعيم الفكرة التي ترى أن التوجهات التحليلية والعيوب الإيديولوجية لهذا النموذج أثرت هي الأخرى بصفة حاسمة في اختيار مواضيع البحث"[35]. إن هذا التناقض داخل النظرية الواحدة، يعطي لنا فكرة عن بقية الأنساق النظرية الأخرى داخليا، وفيما بينها. إن التحليل الإبستمولوجي لأزمة سوسيولوجيا الآخر، يؤكد بلا شك التناقض والصراع والاختزال الذي تعيشه الذات المفكرة الغربية (السوسيولوجية)، وتكشف المقاربة الإبستمولوجية أوهام العلمية والموضوعية التي ادعتها هذه الذات منذ عقود طويلة " إن العقل الغربي هزته أزمة عميقة، ليس من السهل تحديد طبيعتها بدقة، وتقويم مداها، وسبر أعماقها، وتوقع نتائجها. إلا أنه يمكن تأكيد أن هذه الأزمة تكشف، في آن واحد، عن عجزنا عن فهم انبثاق الجديد وتفسيره، وتحليل الآخر والمختلف بطريقة بليغة، وتخليصنا من معارفنا "المنتجة" والمتقهقرة"[36] .

قائمة المراجع:

1. بوتول غاستون، تاريخ السوسيولجيا، ترجمة:محمد حقي، بيروت، منشورات عويدات،77، ص20.

2.A.Koyré, Etudes d'histoire de la pensée scientifique,Paris Alexendre Gallimard, 1973,p40.

3. بدوي عبد الرحمن، فلسفة العصور الوسطى، بيروت: دار القلم، 1979، ص56.

4. ف. فولغين، فلسفة الأنوار، بيروت: دار الطليعة، 1981، ص7.

5. نفس المرجع، ص7.

6. K.Marx, F.Engels, Œuvres choisis en trois volumes, termes, Moscou : Ed.du progrès, 78, p41 A.Koyré ,op-cit,

7. رينه ديكارت، مقالة الطريقة، ترجمة:جميل صليبا الجزائر:موفم للنشر،1991، ص45.

8. نفس المرجع، ص81.

9.E.Cassirer, la philosophie des lumières, paris : Foyard, 1966, p46

10. E.Darkheim, le socialisme, Paris. Ed. P.UF, 2eme édition, 1971, P126.

11. G.Gusdorf, Introduction aux sciences humaines; essai critique sur leur origine et leur développement, Paris: Ed. Les belles lettres, 1960, P76.

12. . M. Foucault, les mots et les choses, Paris : Ed. Gallimard, 1966.p 356.

13. R. Aron,les étape de la pensée sociologique, Paris : Ed. Gallimard, 60 p532

14. Ibid, p 532.

15. R.Nisbet, la tradition sociologique, Paris : PUF, 1984 p37

16. Ibid, p 38.

17. E.Darkheim, op-cit,p115.

18. وقيدي محمد، النقد الإبستمولوجي، ضرورته ومستوياته ، مجلة دراسات عربية، بيروت: عدد 1، 83 ، ص17 .

19. E.Darkheim, op-cit,p121

20. Ibid, p 121.

21. Boukraa Liesse, " qu 'est ce que la sociologie ? ", sciences sociales panorama, Algérie : MESRS(ORNS)N°3, 1980,p 77

22. Ansart Pierre, sociologie contemporaine, Paris : Ed le Seuil, 1990,p 18

23. E.Darkheim, op-cit, p 182

24. جيوفاني بوسينو، نقد المعرفة في علم الاجتماع، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995، ص 7

25. نفس المرجع، ص 7.
26. Bourdieu Pierre, question de la sociologique, Paris, Ed.de minuit, 84,p 37
27. Ibid, p 37.
28. Boudon Raymond, la crise de la sociologie, Paris, Ed.Dollaz, 1981, p 37
29. س.ي بوبوف، مرجع سابق، ص 158.
30. Boukraa liesse, op-cit, p74
31. جابر الحديثي،« أزمة العلوم الإنسانية»، مجلة الفكر العربي، بيروت، معهد الإنماء العربي، 88.ص125
32. Eisenstadt, "quelques réflexions sur la crise de sociologie", cahiers internationaux de la sociologie, volII, 1974. :240
33. ibid. 246
34. جيوفاني بوسينو، مرجع سابق، 18.
35. نفس المرجع، ص18.